



دراسة أبعاد الوطن الفنية و الاجتماعية فى شعر البحرين المعاصر



صمد مؤمنى*

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٨/٢ هـ ش
تاريخ القبول: ١٣٩٠/٨/٢١ هـ ش



الملخص

إنّ الذين تناولوا بعد الوطن الاجتماعى انقسموا إلى فئتين: الأولى، هم الذين تناولوا المرأة والوطن من منظور عاطفى داخلى، فنرى اهتمامهم إلى الوطن ساذجا حسيا، والثانية، هم الذين جعلوا بعده الفكرى أساس تجربتهم فنرى اهتمامهم إلى الوطن وقضاياها الإنسانية أعمق وأكثر، وتركوا اهتمامهم الرئيس إلى المرأة والطبيعة، وجعلوه فى خدمة الوطن والإنسان خاصة. ونشط أكثر شعراءها فى مضمار الإصلاح الاجتماعى، والدينى، والسياسى، والأخلاقى، واشتغلوا بالتربية والتعليم، نذكر منهم عبدالله زايد صاحب أول جريدة فى البحرين، وعبدالرحمن معاودة، وقاسم الشرفاوى، وسيد رضى الموسوى، وملاعطيه جمرى، ومبارك خاطر، والشيخ منصور الشهابى، والآخرين الكثيرين، وجدير بالذكر أن نعدّ ميزات تجاربهم الشعرية، منها: الأسلوب الخطابى، متابعة الوقائع، والمناسبات السريعة، وهدفها التعليمى والأخلاقى. يهدف هذا المقال إلى دراسة أبعاد الوطن الفنية والاجتماعية فى شعر الشعراء الذين ذكرناهم أنفا.

الكلمات الدليلية: الشعر، البحرين، الوطن، المرأة، الطبيعة، البعد الفنى والاجتماعى للوطن.

المقدمة

أسهل ما يمكن أن نقدم الوطن هو مساحة جغرافية مع جماعة من الناس بعلاقات إنسانية، وثقافية، واقتصادية بيد أنه تجب زيادة العلاقة العاطفية بين الناس، وإحساس المحبة إلى الآخرين وإلى الأرض كي يشتمل الوطن بعدين أعنى المادة وما فوقها، لو أردنا أن نقدم للحبّ تعريفا حسب ما هو معروف بين الناس، نصل إلى الحبّ للمرأة والذي يبدأ في اعتقادنا بالحبّ إلى الأم. إذا يمكن القول بأنّ الوطن منسوج من الطبيعة والإنسان والعلاقات بين إنسان وآخر وبين الإنسان والطبيعة التي تحتوى على عناصر عامة وخاصة في تعريف الوطن، ونحن لسنا وراء العناصر العامة وأما الخاصة منها فلها أهمية خاصة، وبما أننا في بحثنا هذا وراء أرض البحرين وظاهرة النخل والبحر ذواتا الصلة بالإنسان، فنهتم بهما قائلين إن الذي يهمنا أكثر هو الميزة الأدبية لعناصر البحرين الطبيعية الخاصة. النخل يرمز إلى انتشار الجذور في الأرض ويصور المشاعر العميقة نحو الوطن والتعلق بالأرض شديدا والبحر تعبير عن رحلة نحو غاية مجهولة ترافق القلق والاضطراب الداخلي والاستعداد للقيام والنهضة في البحرين. ويعيش بجانب النخل والبحر في البحرين الفلاح والبحار، أما الفلاحون فيعيشون معيشة صعبة وأكثرهم من الشيعة، والبحارة يعيشون عيشة خطيرة وأكثرهم من السنة، عاش البحر والنخل زمنا طويلا متباعدين اختلافا للبيئات الجغرافية والمعيشية والنزاعات المذهبية. فمن الطبيعي أن نقول إنّ الشعراء السنين لم يستخدموا رمز النخلة لعدم إدراكهم كنهها كما أنّ الشعراء الشيعيين لم يستخدموا جيدا رمز البحر لكونهم غير مدركين حقيقته، اقترب النخل مع البحر لحد ما حين اكتشف النفط سنة ١٩٣٢م، ونشأت حوله فرق عمّال الصناعة، وحلّ حبّ الوطن لديهم محلّ حبّ النخل أو البحر فلا بدّ للشاعر أن يسير مسار النخل، والزراعة، والبحر، والغواصة وما من تجربة شعرية مرتبطة بالبحرين إلا ولها صلة بالنخل والبحر كما تتناول قضية الإنسان المظلوم والمضطهد.

حسب ما بين النخل والبحر من الميزات الطبيعية وحسب ما أشرنا سابقا وصلة النخل مع الأرض مباشرة والأمن الذي يوجد في الأرض دون البحر، نستنتج أن النخل أقرب إلى أن يعتبر وحده رمز الوطن ولو أنه يرافق البحر دوما، للوطن



علاوة على الموقف الأرضى موقف إنسانى، فإهمال النخل فى التجربة الشعرية لشعر البحرين المعاصر يؤدى إلى تجاهل موضوع الوطن وقضاياه الإنسانية. أول مؤشر فى تحليل التجربة الشعرية الاجتماعى هو العلم بالواقعية المسيطرة على الوطن أولا، والعالم ثانيا؛ ويحتوى هذا العلم عنصرى الروح الذى يرتبط بالعاطفة الإنسانية والتفكر الذى يرتبط بقدرة الرسوخ فى الحقيقة وتمييز الشؤون المختلفة فالعلم الحقيقى موقف ينبع شعور داخلى بقضايا الإنسان ورؤية عميقة وباحثة عنها، وموقف كهذا يسير فى سبيل مستقيم ويميز الظالم من المظلوم فى حدود خاصة تسمى المجتمع ويعيد الحق إلى صاحبه. لعلنا نرى الشعور السلبية نحو الوطن، موقفا سلبيا، لكنه لا يتناسب وجوهر الشعر، لأن لأصحاب هذا الموقف تجربة شعرية صادقة وأصيلة تزيل سلبية موقفهم. فتناول إبراهيم عريض قضايا الإنسان، حبّ عبدالرحمن معاودة العميق إلى الوطن، تصوير جماليات الوطن، والافتخار بالحضارة الإنسانية فى شعر قاضى القصيبى، تمحور مشاكل الوطن والإنسان المظطهد عند على الخليفة و... كلّ هذا يدل على أنه لا يعتبر الشعور السلبية نحو الوطن موقفا سلبيا لأن هذه الشعور نابعة عن الواقعية وعن اهتمام الشاعر إلى واقعية الوطن.

بعد الوطن الاجتماعى

لو أردنا أن نتعرف إلى شعر البحرين المعاصر حقا، علينا أن ندرس القيمة الثورية لأعمال شعراء النهضة الشعبية فى الخمسينيات، وبما أنّ هذا العقد من التجربة الشعرية اقترن بأولّ حركة شعبية منظمة فى تاريخ البحرين، فلا يمكن أن نترك الأشعار الوطنية، لأنّ لهؤلاء الشعراء دورا هاما فى تحريك النزعة الوطنية، منهم عبدالرحمن معاودة الذى يقول:

- أبنى أوّال وآنّتها لخريدة ووديعة الآباء فى الأبناء
 □
 ما للغريب بها يعيش منّما أسفا ونحن بزمرة الفقراء
 □
 أبنى الجزيرة شيبها وشبابها ليس العيش تطيب للجبنا
 □

هيا اقشعوا حجب الظام وشمروا واسموا حقكمو بلا استخذاء
(المعاودة، ١٩٦٠م: ٥٦)

يعتقد الشاعر في البيت الأول بأن الوطن أمانة ورثتها الأسلاف عن الأخلاف، وبهذا يوقظ مشاعر حب الوطن الجماعى فى نفوس الناس، ويستفهم فى البيت الثانى استفهاما يريد منه التعجب والتوبيخ علاوة على إثارة الهمم، لماذا يعيش الأجنبى فى لهو ودلال بأرضنا ونحن أبناء هذه الأرض نعيش بؤساء ثم يخاطب فى البيت الثالث كل مواطنيه شابا كان أم شيبا، قائلا: لا يصفو العيش للجبناء ويريد منه نهوض الأمة وإزالة الخوف عنهم، وأخيرا فى البيت الذى يضم قصده فيه أى الثورة، يكشفه قائلا: انهضوا وأزيلوا ستار الظلام وخذوا حقوقكم بلا توان، ومن ثم هذا الصراخ الثوروى المطنطن فى اجواء القصيدة ينبع عن واقع المجتمع، ومن هنا تصبغ تجربته الشعرية صبغة اجتماعية، لأنه يدعو على أساس الواقع مواطنيه إلى عمل اجتماعى أى الثورة. لعبدالله زايد قصائد لعبت دورا هاما فى إثارة القيام الشعبى والتعبير عن آمال الوطن وآلامه ولو أن لأشعاره قليل أثر أمام معاودة لكنهما ذوا نزعة واحدة، ينشد زايد:

يا أيها العرب انهضوا واستبسلاوا إن الحياة تزاحم وجدال
إن العرب مصيرها فى كفها تُسدى النفوس وتبذل الأموال

خاطب زايد العرب كلهم ولا الوطن كشعب واحد، ويدعوهم كى ينهضوا ويستبسلاوا، دعوة إلى الثورة والقيام الشعبى أمام الظلم والاستعمار، يقول فى البيت الثانى: مصير كل شعب بيده ويكنى بهذا القول طالبا من الشعب العربى أن يملكوا مصيرهم ويكتبوه بأنفسهم إذا نرى زايذا يستخدم الواقع فى تجربته الشعرية وخاطب جميع الشعوب العربية كأمة واحدة بدل أن يخاطب شعب وطنه وحده.

اهتم شعراء كثيرون إلى جانب معاودة وزايد، بالوطن وأصبحوا لسانه المبين، ويزخر شعرهم علاوة على الاهتمام بالواقع من معانى الغضب والشكوى من وجود وتدخل الاستعمار والأجانب فى الوطن، الحرية، الوحدة الشعبية وتحقيق الوحدة العربية إثرها نصره فلسطين والجزائر وكل الأراضى العربية متزامنا القضايا الوطنية. خمد الشعر وهو لسان هذه الحركة المبين إثر تأميمها أواسط الخمسينيات وأصبح محبوبا فى الصدور إثر امحاء نداء الحرية بضع سنين، ونرى أفول شمس



الاستعمار في الستينيات، وتراجعت انجلترا عن أراضي البحرين بحيث استقلت البحرين سنة ١٩٧١م ولا يهتم الشاعر بعد استقلالها بقضية الاستعمار والتدخل الأجنبي في شؤون الوطن إلا من عاشوا الخمسينيات، وبعدها:

إنّ عصر الانتداب قد مضى لم يُعدّ فيك دخيلٌ أجنبي
فاستقلّي والبسى أحلى المُنَى نصرك اليوم انتصار العرب
وبعد أن يخبر الشاعر في البيت الأول عن نهاية عقد التعلق وخروج الأجنبي من الوطن ويعدّ فوز وطنه فوز العرب كلهم فهو يبذل فوز شعبه إلى فوز قبلي عنصري علاوة على اهتمامه باستقلال البحرين، والذي يمكن أن يفسره في عداد الوحدة العربية. كما قلنا نجد هذا النوع الأدبي (أواسط القرن العشرين) عند شعراء عاشوا الخمسينيات مع مصائبها كلها، هم الذين هجوا الاستعمار، وشكوا حضور الأجنبي، ودعوا إلى الثورة، ويصرخون فرحا، ويعتزون بأنفسهم حاليا.

ونرى الشعراء الذين عاشوا الخمسينيات، والستينيات كلتاهما إنما عبروا عن فرحهم وفخرهم وراء خروج الاستعمار دون أن ينفذوا إلى حقائق شؤون الوطن الخاصة أما شعراء الستينيات وما بعدها، تعمقوا فيما حدث حولهم وتناولوا الوقائع من كل الجهات ومشوا وراء كشف الحقائق ونجدهم واقعيين بحيث غلب البعد الفكري في شعرهم على البعد العاطفي. تناول الشعراء البحرينيون قضية فلسطين من الخمسينيات إلى اليوم وبترأسهم إبراهيم عريض في حماسة "أرض الشهداء" والذي يهمننا إيجاد العلاقة بين قضية فلسطين والبحرين، وقد حاز بهذا الافتخار شاعر الستينيات بالتأني، وإحساس الواقع حوله، إنه وجد بين قضية فلسطين - هجوم الأجنبي - وبين ما حدث في البحرين عهد الاستعمار صلات، ولذا تجاوز حدود أرضه وتناول قضية فلسطين كواقع شعبي ولعله يربط بين البحرين وفلسطين. ينشد غازي القصيبي مخاطبا الأراضي العربية:

بالأمس قد قطع اليهود يمينها أرى الخليج غدا ضياع يسارها
(القصيبي، ١٩٧١م: ١٠٤)

ينظر الشاعر إلى القضية نظرة شعبية ويجعل العرب مواجهين اليهود ذاكرة اليهود في الشطر الأول ويقصد به اغتصاب أرض فلسطين، ويقول في الشطر الثاني مستفهما استفهام استيقاظ وتحريك الهمم كيلا نفقد الضفة الغربية للأراضي



العربية بشاطيء الخليج الفارسي. جعلت قضايا فلسطين قلب القصيبي مؤلما كما جعله التجاهل العالمي متحيرا فضايق صدره بها ولم يأل جهدا في سبيل الوعي الإنساني ومن ثم يصور فلسطين تصويرا دقيقا في إحدى قصائده مبينا الظروف المسيطرة على العرب:

يذبْحنا "شارون" كالأغنام

يشتُمنا الخاخام

يصدُّ عنا عمَّنَا الحَنون "سام"

ويرقُبُ العالمُ ما يجرى لنا

كأنه فلمٌ من الأفلام

(القصيبي، ٢٠٠٢م: ٨٩)

يحسّ غضب الشاعر المستتر في الأبيات كلها؛ يشرح تماما أن اسرائيل تقتل الناس برئاسة "شارون" ويدعمه الخاخام ويرى العم "سام" جد الأمريكان الكبير، ويصور بكلامه "يصدُّ عنا عمنا الحنون سام" دعم أمريكا لإجراءات إسرائيل المضادة للبشرية، ويستخدم الضمير المجموع "نا" مشيرا إلى أن العرب كلهم ضحايا هذه الجرائم لا فلسطين وحدها، ويقول في البندين الأخيرين إن العالم كله يعلم ظروف فلسطين لكنها شبه بفلم يسليهم، إذا ينقد لامبالاة المجتمع الدولية ويبلغ النقد ذروته لما ينشد:

مِن قَمَّةٍ ... لِقَمَّةٍ ... لِقَمَّةٍ

نصرُحُ بانتظام

"نحن مع السلام"

(المصدر نفسه: ١٢٥)

فيقول موضحا: اهتماما بالظروف العدوانية واللاإنسانية الموجودة في فلسطين، ما صرخة حماة السلم إلا دعاية إعلانية تنفعهم، فالقصيبي كشاعر وقيل كل شيء كإنسان يفهم آلام مواطنيه، ولما رأى تجاهل العالم والشعب العالمي؛ لا يجد بدا إلا ويصور آلام مواطنيه ولما لا يجد دواء لدائه يصور أمانيه شعرا:

في كل يوم...

ألف معركة...



وأحلمُ أن يزورَ الخبزُ...

حلقَ الجائعين

في كلِّ يومٍ...

ألفُ معركةٍ ...

وأحلمُ أن يزورَ الأُمُنُ

جَفَنَ الساهرين

وتقولُ زوجي:

«نَمُّ»...

وعينُ الظلمِ يقظى لاتنام

وتقولُ زوجي:

«كُلُّ»...

وجُلُّ الناسِ ما عرفوا...

سوى طعمِ الصيام

(القصيبي، ٢٠٠١م: ٤٨-٥٠)

أدت قضية فلسطين إلى أن اهتم الشاعر البحريني خصوصا وشعراء العرب عامة إلى الحقائق الاجتماعية والوطنية والإنسانية أكثر من أي زمان آخر ونادوا نداء الاستغاثة أمام الظلم والاستعمار والحرية الإنسانية، ويمكن القول إنَّ شعراء الواقعية الجديدة استطاعوا أن يروا فوق الحدود الجغرافية بنظرتهم الإنسانية، وأن يفكروا عالمين في موضوعات كالفقر وغنى الاستعمار، الاستقلال والجوع و... لو مزجنا بين الموضوعات الثلاثة: الاستعمار، البحرين وفلسطين من منظار شعر البحرين المعاصر لوصلنا إلى قضية الوحدة العربية، لأن الشعر كما قلنا تجاوز حدوده الجغرافية ونظر إلى القضايا الحالية نظرة قومية وبما أنَّ البحرين تاريخيا وثقافيا تحسب جذور العرب القحطاني ومولده، فحظيت باهتمام الشعراء البحرينيين لاتحادها مع سائر الأمم العربية، وكان هذا الاتحاد الكبير طيل التاريخ تسبب عن قلق الشاعر البحريني بل والشخص البحريني، يقول عبد الرحمن معاودة:

الوحدة الكبرى هي الهدف الذي

نسعى لنبلغه صباح مساء

(المعاودة، ١٩٦٠م: ١٦٥)



وصل الاشتياق إلى العروبة لدى الشعراء البحرينيين لحد، لعبوا دورا هاما في اختيار أحمد شوقي كأثير شعراء العرب وأهدوه نخلة ذهبية بأكامم وأثمار فضية وهي رمز العرب عند البحرينيين وأنشدوا له أبيات:

حياك من دارنا البحرين لؤلؤها والنخل إذا بسمتُ فيه الأكاميم
فإنّا نحبك باسم العرب أجمعهم فحقها في بطون الصحف معلوم

يبدأ الشاعر كلامه بالتحية والسلام والهدية ولو أمعنا النظر إلى كلمات النخل واللؤلؤ والأكاميم لرأينا رمزا إنسانيا للعرب في البحرين كما أنه سمة من سمات الحب للعروبة ويظهر في البيت الثاني جذور العصية العربية وإثارة القومية العربية ونرى حبهم لأحمد شوقي لأجل العرب والقومية العربية ثم يبالغ فيها ويجرها إلى التاريخ بحيث حَقَّها معلوم في الصحف وربّما نستنتج أنّ حبّ العروبة والقومية والوحدة العربية بلغ حدا يستغلون اختيار أحمد شوقي كأثير شعراء العرب وصولا إلى عصبيتهم وقوميتهم، إذا الشاعر الواقعي يرتبط بين واقع الوطن والعالم برؤية عامة، هي من ميزات الشعر الحرّ، ويستغل جميع الأشياء للوصول إلى العروبة أو الوحدة العربية.

إنّ مؤشر حركة الشعر الحرّ في البحرين ظهوره عن عمق الواقع وقضايا الوطن والمواطنين ومشاكله، لو تأملنا في تجربة الشعراء الشبان البحرينيين لرأينا أنه يتمحور حول ثلاثة محاور رئيسة: الحرية، الخلاف، الحرب الطبقيّة والقمع، أما الحرية فهي موضوع الشعر الحرّ الرئيسي. ونعلم أنّ لتحرير الوطن من مخالب الاستعمار أهميته، لدى أجيال الستينيات، ورأينا أن الاستعمار زال واندثر والذي شغل به هذا الجيل، هو الحرية السياسية والاجتماعية والفكرية ونستطيع أن نحدده في حرية البيان الذي ينبع من الواقع ويرتبط بالظروف الراهنة وكان الشعر المعاصر على خبر من دور لفظة الاستيقاظ والحركة؛ فشكّلت الحرية في البيان قسما رئيسا من مطالب الشاعر. ويجد بالذكر أنّ الظروف الصعبة والاختناق الداخلي أواخر الستينيات أدت إلى اهتمام الشعراء بواقع المجتمع المرّ وطالبوا الحرية المدنية والأهمية القصوى هنا لحرية التعبير، لأنهم أدركوا واقع مجتمعتهم المرّ البشع والصمود أمام هذه الواقعية، يدلّ على رفضها والسعي لتغييرها، وندرى أنّ مادة الصراخ؛ الكلمة، لأنّ الإنسان لا يستطيع الصراخ والنجاة إلّا بمساعدة



الكلمات.ولهذا أصبحت الكلمة في خدمة حرية التعبير في الشعر الجديد وذات أهمية قصوى.

أه كم تاهت معانينا وزيقنا العبارة
ورفعنا فوق هامات الحروف
خطبا جوفاء... صققنا طويلاً لشعارات التجارة
وتساقطنا عرايا

لاصلاة الفجر تجدينا ولا غسل الطهارة

يشكو الشاعر علما بدور الكلمات وقيمتها عن استخدامها المخطئ واستخدام الضمائر مجموعة لكي يفيد شعوره السلبية شمولاً ويبدى عن جلاله في مستوى المجتمع الواقعي. ويعتقد أنّ الأحاديث كلها لا قيمة لها ويعبر عن كلامه هذا "بزيقنا العبارة" و"تاهت معانينا" إنه يقدر الكلمات والعبارات بحيث يعادل عنده كفران الكلمات مع رفض العبادات ويقول: «لا صلاة الفجر تجدينا ولا غسل الطهارة.» ففي رأى الشاعر استخدام الكلمات في غير مكانها كفر عظيم لا يغفر، ويمكن أن يدلّ على يأس الشاعر من تغييز الظروف بحيث لا يجديه الأمور المقدسة والمعجزة. قد يعجز الشاعر أمام واقع الوطن ولا رجاء لديه في التغيير ويعبر عن ضعفه في تغيير الظروف وربما يسلب الروح الثوروى من المجتمع، بلغ القصيبي إلى مثل هذا اليأس وينشد بنظرة سلبية:

أنا يا رفاق الحروف
جبان كأرنبة لأطيق حياة السجون
ويرعبنى المخبرون
وأكره لقيا المنون
وأهوى الخلاص
وأمقت صوت الرصاص
أنا أعشق الشعب لكننى
أخاف من السادة الحاكمين
(القصيبي، ١٩٧١م: ٤٠)

غلب اليأس والضعف عليه حتى ترك نفسه ويقدمها جباناً كأرنبة، تعشق

الحرية والخلاص لكنه لا يطيق السجون؛ يعشق قومه وهو يخاف المخبرين، فنرى تناقضا روحيا سيطر عليه طيل القصيدة، يبدو من سياق القصيدة أنه يسير مسار الصمت والتلائم مع الظروف نتيجة الخوف المسيطر عليه، على أنه لا يفكر في تغيير ظروف المجتمع بل ويوحى إلى مخاطبيه موجة شعور سلبية وكلها نابع عن الواقع، نجد مثل هذه العبثية العميقة وقبول النكسة لدى عبدالرحمن رفيع:

أما آمالنا فتلهو بنا

مثلما يلهو بنا لمع السراب

لن يرى الإنسان وجه النور أو ظلّ الحقيقة

(الرفيع، ١٩٧٠م: ٣٧)

إنه يرى الجميع ألوية في أيادي الآمال؛ آمال كلمع السراب لها ظاهر خلب وباطن عبث، ونرى لون اليأس في الشطر الأخير ظاهرا تماما لأنه يعتقد أنّ الإنسان لن يرى وجه النور ولا ظلّ الحقيقة، فالظلام والغبرة محضة لديه وما من تغيير هناك ومن المؤكد أننا لانتوقع من شخص كهذا شيئا إلا قبول الفشل وعدم المحاولة لبناء واقع أفضل. وينشد مؤكدا هذا الموضوع:

غير أنّه لا بد من كأس الهزيمة

(المصدر نفسه: ٣١)

يقع عبدالرحمن رفيع في خاتمة الشعراء الرومنطقيين ويمكننا أن نقول: الشعور السلبية هي أساس تجربة شاعر رومنطقي لمواجهة الواقع المرّ، وشعراء هذه المدرسة الأدبية لا يرون طريقا للخلاص من الواقع إلا الخيال والحالة النفسية، فالشاعر الرومنطقي لا يجد بداً لحلّ مشاكل الواقع وما يعبر هو إلا عن عاطفة ومشاعر نفسية، وليس أمام الواقع الصعب المرّ إلا وله شعور سلبية ومظلمة ولا نرى حلا لهم إلا اللجوء نحو الطبيعة أو الشؤون المتافيزيقية. لكن الواقعيين لا يخوضون في اليأس ولا هم غير مبالين بالواقع بل يعبرون عن أحاسيسهم الداخلية ويختارون طريق الصمود والثورة وينقلون إحساسهم إلى المجتمع، بل وإلى الإنسان جميعا، ينشد قاسم حداد بهذا المنظر قائلا:

يا أيها الإنسان

نحن أمام صفحة جديدة من دفتر الأحران



فلنكتب التاريخ من ضميرنا

وليسقط الجبان

(حداد، ١٩٧٠م: ٥٥-٥٤)

إن الشاعر يفهم الواقع ويرى أنّ ظروف الوطن الحالية مليئة بالآلام، ويصور الليلي مليئة بالهموم والأحزان معتقدا أنّ أماننا صفحة جديدة ومستقبلا جديدا، وبهذا يثير الهمم متأثرا بموقف إيجابي وثوروي، يأمرنا أن نتصفح التاريخ في أنفسنا وواضح أنّه يقصد بناء مستقبل ومصيرنا بأيدينا وينفخ في صدور الآخرين، الحماس والغيرة. إذا يريد الشاعر تغيير المستقبل رغم قبوله الواقع الحالي ويمنح تجربته الشعرية بعدا اجتماعيا تاما باستخدامه ضمائر وأفعال الجمع كما ينفخ روح الثورة في صدر المجتمع. فقا سم حداد اتخذ واقعا اجتماعيا ودعا العزم الجماعي قاصدا أن يكتب الناس واقعهم الاجتماعي الأحسن بيدهم، فامتزج شعور الشاعر السلبية مع رغبة التغيير والثورة وبقي هذا الروح الثوروي كإحساس إيجابي.

لوقارنا قصيدة قاسم حداد هذه مع قصيدة عبدالرحمن رفيع السالف ذكرها أو مع قصيدة غازي القصيبي ولهما تابع رومنطيقى لرأينا أنهم وإن كان لديهم شعور مشتركة بالوطن لكنهم اختلفوا حول المستقبل، اقترب شعراء الواقعية الجديدة في البحرين إلى مستوى الواقع بتجاربهم الشعرية الكاملة، فنية كانت أم نفسية وتعمقوا في الواقع الراهن أكثر من قبل، فلا تناقض في أشعارهم كما شاهدنا في أشعار القصيبي واستطاع أن يكون ذا موقف وهدف بإدراك الواقع والتأمل فيه وأبدى عن موقفه هذا في تجربته الشعرية ونقله إلى مخاطبيه، فموضوع هؤلاء الشعراء البحرينيين المعاصرين وموقفهم ودراساتهم واضح جدا، ينشد يوسف حسن وهو يملك الأوصاف المذكورة:

مَرّقوا أوطانكم

بصقوا في وجهكم

لوثوا تاريخكم

غيروا وجه الخرائط

(الديوان: ١٥١)

نواجه في هذه القصيدة كثرة أفعال الأمر وهي تدلّ على وضوح موقفه وهدفه،



إنّه يهاجم الواقع دون ستار ويريد إبطال التاريخ بحيث يكنى به عن كتابته من جديد ويعنى التغيير والإصلاح ويصرح به دون أى شكّ وتناقض ويطلب من الجميع هذا التغيير وهذا يعنى وضوح الموقف والهدف. يقول:

أرفض أن أكون حجراً
أو قبضة تمسك بنيانكم المنهار
أرفض أن أبيع أو أباغ
حتى ولو حوصرتُ
وأغلقت في وجهى الدروب
حتى ولو مُنعتُ عن تنفس الهواء
وأوقفتنى الشارة الحمراء
(المصدر نفسه: ١٥٥)

يرفض الشاعر أن يكون كسلعة تباع أو كلبنة في بناية الظلم والظلمة بل يريد أن يكون إنساناً ويعلم غيورا أنه يصطبر على عقده واعتقاده ولو منع عن التنفس الذى هو حقّ كلّ موجود، له موقف وهدف ويتحمل في سبيل تحقيقه كلّ ضريبة ولو باهظة فالشاعر ينفخ روحاً إنسانياً وثورانياً ويصبغ بصبغة اجتماعية وإيجابية، علاوة على الإيضاح وموقفه الصامد.

يتمركز الواقعيون على واقع المجتمع وبما أنّ الواقعيين البحرينيين اعتمدوا على واقع مجتمعتهم بعد خروج الاستعمار فدخلت موضوعات الفقر، والألم، والجوع، فى أشعارهم، لأنّ مثل هذه الموضوعات موجودة فى أرض البحرين، وبما أنّ ظاهرة الفقر والغنى أو الألم والجوع لاتختص بالبحرين وساكنيه بل قضية إنسانية عالمية، فنرى الشاعر ينظر إلى القضايا الإنسانية نظرة عامة وعالمية.

أنا الإنسان فى شتّى بقاع الأرض
أنا جمع من الفقراء والبؤساء والمرضى
وتاريخ من التشتيت والكبت
أخاطبكم أحبائى
وفى حلقى مياه البحر والمسمار فى جوفى
(خليفة، ١٩٩٤م: ١٤٦)



يقدم الشاعر نفسه في الوهلة الأولى إنسانا ثم يضيق عرض الدائرة وهو جمع من الفقراء والبؤساء والمرضى، لأنه من الواقعيين وأحسّ الواقع بنفسه واتحد معه وما الواقع الموجود إلا الفقر والمرض، إنما يحمل الشاعر معه تأريخا من الاضطراب والقمع ويقول في الشطرين الأخيرين كناية: أتكلم معكم رفاقي عطشانا جوعانا وندري أنّ ماء البحر مالح ولا يدفع العطش بل يكثر غلّة النفس كما يكنى عن جوعه الشديد بالمسمار في جوفه، فموضوعات القصيدة الرئيسة هي الإنسان والفقر والجوع، التي تنبع عن الواقع الراهن وتبحث وراء تصويره ونعلم أنّ معاني الفقر والجوع عامة والاقتصاد خاصة من المعاني الماركسية، فبإمكاننا أن نحلل مثل هذه القوائد حسب المعتقدات الماركسية وندرسها حسب أسسها. فالشاعر الواقعي يرى وظيفة الكلمات في التعبير عن الواقع فيهمه قضايا الواقع، ولو واجه القمع والاختناق، لصور بشعوره الثوروية مهتما بوظيفة الكلمة، الظروف الراهنة التي هي القمع والدمار ويتناول الواقعية بلسان آخر.

يولد الشاعر ولا يعطونه الفرح

لكن يعدّون له السجن والنعش والمقصلة

(حداد، ١٩٧٦م: ٧٨)

يعلن الشاعر شاكيا؛ أخذوا عنه الفرح، وهو نابع عن الواقع المرّ ثم يشير إلى قضية القمع ويذكر آلاته مفضلا، فالشاعر الواقعي يصور الواقع أنى كان، فإنه يصرخ وفي صراخه روح، وروى، وتضحية، وتفان.

حين تعلّمت "لا" تعوّدت أكل السجون

(الشرقاوى، ١٩٧٥م: ٣٥)

تعلم الشاعر "لا الثوروية" وذاق حلاوة طعمها، تعنى هذه اللارفض الواقع أمرّ ورفض القمع والصمود أمامه والحركة نحو التغيير والإصلاح والثورة، يعتقد الشاعر بها واعتاد الحبس في سبيل عقيدته ويرى هذا القمع تافها أمام غرضه الأصلي.

يتكلم الشعراء الواقعيين الجدد عن ظروف المجتمع الداخلية ويهملون الأجانب، يلهمون موضوعاتهم عن الواقع لتغييره والوصول إلى واقعية أكثر جدارة وهو مرتبط أخيرا بالوطن في كل أبعاد هو والآن نريد أن نعلم هل للوطن علاوة على بعده الاجتماعي وقضاياه الموجودة بعد آخر وبعبارة أخرى هل للوطن في



التجارب الشعرية ولو واقعية بعد آخر غير البعد الاجتماعي والواقعي؟ الجواب إيجابى؛ بل ولنقل أنّ أية تجربة تسمى شعرية لما احتوت على البعد الفنى إلى جانب الأبعاد الأخرى.

البعد الفنى للوطن

لا مفهوم للوعى الواقعي من البعد الأدبي إلا وأن يرافق الوعى الفنى، فالوطن من البعد الفنى واقعية مرئية أثارت الشاعر بجمالها الطبيعي كى يصف من جهة وهو واقعية اجتماعية تحتوى الأبعاد الاقتصادية، والسياسية، والثقافية من جهة أخرى، فالوطن من وجهة نظر فنى مزيج من الواقعيات الثلاث: الواقعية المرئية، والاجتماعية، والداخلية التى تشمل عواطف الشاعر إلى الوطن ولها مفهوم فوق ظاهره. وكما أشرنا سابقا العناصر الهامة التى ترمز إلى الوطن فى البحرين هى النخل، والبحر، وخاصة النخل، ففى دراسة البعد الفنى يجب الاهتمام بهما، لأنهما فى أقل المستويات يعبران عن واقع الوطن المرئى، وربما يبحث من اقتران النخل والبحر عن معان عميقة وراء معناها الظاهر، علينا أن ندرس الشكل والمضمون معا، لأنّ للوطن شكلا خاصا كما له معان داخلية خاصة، ويجب دراستها فى كلا المستويين. ومن ميزات شعر البحرين المعاصر اقتران النخل والبحر فنيا، وهذه ظاهرة حديثة ولا يريد الشاعر من هذا الاقتران إلا تصوير طبيعة الوطن:

والنخل وارفة الظلال كأنّها جيش مكثف بالخليج معسكر
تهدى لها الصحراء فى السحر الصبا فتمرّ كأحلام اللذيذ وتخطر
والبحر يهديها اللآلى زينة وتجارة فيها الغنى يتوفر
(الحبشى، عبدالله: ٢١١)

استخدام ظاهرته النخل والبحر وتفصيلهما فى أى طور من شعر البحرين يرتبط بلاوعى الشاعر مباشرا، لأنه ولد فى بيئة ونشأ فيها يعيش الناس عن طريق الزراعة والبحارة، ونعلم أنّ زراعة البحرين زرع النخيل فيلعب النخل والبحر دورا هاما عند الشاعر البحريني كعاملى الحياة المقدسين الجميلين، سواء أكان الشاعر رومنتيقيا أم واقعيًا، قويا كان أم ضعيفا، متأثرا بالبيئة. فالبيئة التى يستخدمها الشاعر البحريني فى معان مختلفة هى النخل، والبحر، وتنبع عن لاوعيه، وكان



أثرهما شديدا في مجتمع البحرين بحيث قسم الناس إلى الفلاحين والبحارة، فامتزاج النخل والبحر في التجربة الشعرية يعنى امتزاج هاتين الفئتين وأخيرا وحدة المجتمع.عندما يصبغ امتزاج النخل والبحر صبغة فنية جعلت المرأة كحلقة وصل بينهما.وبدخول المرأة في التجربة الشعرية يصبغ امتزاج النخل والبحر صبغة عاطفية ويصبح اقترانا نفسيا، يفيد حضور المرأة معانى كبيرة إلى ظاهرتهى النخل والبحر الطبيعيتين.أول من أعطى امتزاج النخل والبحر معانى عالية ولونا فنيا، على الخليفة وأدى وظيفته في ديوانه الأول "أنين الصوارى":

كل أبائك عاشوا للنخيل للبحال

(خليفة، ١٩٩٤م: ٤٧)

يبالغ الشاعر فى معانى النخل والبحر بحيث يرى سبب حياة الماضين هو النخل والبحر، وهذا المعنى معنى وطنى وهناك نقطة هامة أخرى ألا وهى تجربة على الخليفة العاطفية الفاشلة فى التقاء المرأة التى تلعب دور الوسيط بينهما وبما أن تجربة الشاعر فى مواجهة المرأة فشلت، فلن يستطيع أن يوجد الاقتران الواقعى بين النخل والبحر، لأنه فقد الوسيط بينهما، فدخل إلى شعر البحرين المعاصر عناصر ثلاثة: المرأة، والنخل، والبحر؛ وكلها يرمز إلى بعد من أبعاد الوطن.

وتجسد وجه امرأتى

مصافحة البرق، الموج، النخل

(القائد، ١٩٧٥م: ١٠)

فيتجسد أمام عينى الشاعر وجه امرأته حين يرى البرق والموج والنخل، هنا امتزج عناصر ثلاثة: البرق، الموج، والنخل ويذكر كلها المرأة فى الأذهان ونعلم أن النخل والبحر يرمزان إلى أرض البحرين طبيعيا وإذا امتزجا مع البرق لمحن إلى وجه المرأة المحبوب وبهذا امتزج بعد الوطن جغرافيا مع بعده العاطفى، فاستطاع الشاعر أن يوجد اقترانا لفظيا ومعنويا بين النخل والبحر والمرأة وبما أن الوسيط (المرأة) أشد بقاء فيسيطر بعد الوطن العاطفى على الشاعر فتأخذ العناصر الطبيعية المذكورة معانى فوق ظاهرها.النخل أول رمز للوطن وأهمه والبحر مقرونا بالعيشى الخطر رمز حركة الناس والمواجهة مع مشاكل الواقع.

أحيانا جوهره امتزاج النخل الوطن، والبحر (حركة الأمة) قيام المظلومين أمام



الظالمين وبعلو هذا القيام إلى أكبر مستواه باقتران عنصر المرأة من الذين تركوا أعمالاً جيدة في الوحدة بين العناصر المذكورة الثلاثة؛ سعيد عويناتي الذي ينشد:

كان الشارع بحراً يتدحرج في ذاكرة الطفل
العائد تَوّاً من أصقاع العالم
مخبوياً في ذاكرة الشجر الدلموني الراعف
من يدري ما لون الشجر الدلموني؟
ما لون اللغة الدلمونية؟
(العويناتي، ٢٠٠٢م: ٤٠)

يرمز الطفل هنا إلى مستقبل الوطن أو نفس الشاعر، على كل، يتدحرج الشارع بحراً في ذاكرة الطفل، البحر رمز حركة الأمة أمام المشاكل وتدحرج البحر يرمز إلى موقف الشاعر الثوروي على هذا الأساس يرى الطفل في ذاكرته الناس خرجوا إلى الشوارع ويهتفون كبحر موج، والشجر الدلموني الراعف يعبر عن النخل الراعف ونعلم أنّ النخل رمز الوطن ورعافه يدل على آلام الناس والذي قد خبا في تصوره الثورة. في الشطر الرابع يسأل من يدري ما لون الشجر الدلموني؟ في حين أشار إلى لونه الدامي في الشطر التالي وهذا الاستفهام يدل على أن الشاعر يعتقد بألا يكون شجر الوطن دامياً، لكن لما لم يدرك أحد أساسه إلى الآن استفهم إنكارياً، كي يدل على أنه لا يوجد من يعرف لون الوطن الواقعي. ثم يسأل في الشطر الأخير ما لغة شجر الدلموني، واللغة رمز الثقافة التي لا يجدر مثلها للوطن ويبحث الشاعر هنا وراء الإصلاح والتغيير بتصور ثوروي والاستفهام عن ظروف المجتمع وثقافته، وأدى عن كلامه بلغة رمزية أي مزج البحر والشجر (النخل) فنياً وصورهما، وامتزج هذان العنصران امتزاجاً لا يمكن تفريقهما بحيث يؤدي تفريقهما إلى إخلال في المعنى.

دخلت إلى الشعر المعاصر ألفاظ جديدة إثر ظاهرة الاقتران والامتزاج أهمها فيما يلي: «الذاكرة، الموت، الماء، الولادة، والدمّ...» استخدمت هذه الألفاظ الجديدة كعناصر رئيسة في الاقتران الفني في خدمة معاني الوطن وموقف الشعراء الثوروي. ينشد الشرقاوي:

إنّ الممات لديّ بذور الولادة
(الشرقاوي، ١٩٧٥م: ٣٥)



استخدم الشاعر الممات والولادة متقابلين ويرى الموت بذرة الولادة، لكن بما أن الشعر واقعي وفي خدمة الثورة، بإمكاننا أن نفسر الممات بالشهادة، أى الشهادة تؤدى إلى ولادة شخص آخر، وحضوره الثوروى ومن هنا تبقى النهضة أبداً وتديم حتى نبلغ الفوز والنصر. دخلت رموز الوطن أكثر من قبل فى الشعر لأن الشعراء البحرينيين مالوا إلى الواقع ثم استخدمت هذه العناصر (النخل، والبحر، والمرأة) جنباً إلى جنب إثر زيادة مستوى الوعى الفنى للشعر ومن ثم استخدمت مقترنات معا.

كان مزج العناصر وخاصة النخل والبحر يعتبر اقترانا مكانيا لوصف الطبيعة بادی ذى بدء ونسمى هذا الارتباط بسيطاً وسادجاً ثم امتزجت فيما بعد مع المرأة امتزاجاً غير مفكك يمثل دوراً واحداً ويلقى معنى واحداً ونسميه الاقتران المركب.

النتيجة

الشعور بالوحدة مع الوطن هو إحدى النتائج الفنية وإحدى مستويات الوعى الفنى الراقى، الذى يمكن تسميته بالمحور الأساس فى القصيدة الجديدة فى البحرين الوطن شديد الصلة مع النخل، والبحر، ومن ثم يتولد الوحدة الفنية مع الوطن كما يستخدم عنصر المرأة كوسيط بينهما، وبحضورها فى العناصر المذكورة تدخل العاطفة والحب فى هذه الوحدة ولما مزج الحب مع الوطن أعطاه معنى جديداً مبتكراً يموج فيه الإنسانية وشعراء هذا الطور يبحثون وراء التغيير والإصلاح والثورة، وصحيح أن شعرهم يشبه تماماً شعر الأسلاف لكنه يختلف تماماً من ناحية المعنى. فالحب عند الرومنطيين يعبر عن تجربة الشاعر الشخصية لكنه عند الواقعيين امتزج الحب مع الشعور بالنسبة إلى الوطن وخرج عن التجربة الشخصية وصارت تجربة جماعية تتابع هدفاً جماعياً.

يصور الشاعر واقع المجتمع ويعبر عن موقفه الثوروى والإنسانى ثم ينقل الشعور بالوحدة مع الوطن إلى مواطنيه. يتكلم الشعراء الواقعيين الجدد عن ظروف المجتمع الداخلية ويهملون الأجانب، يلهمون موضوعاتهم عن الواقع لتغييره والوصول إلى واقعية أكثر جدارة وهو مرتبط أخيراً بالوطن فى كل أبعاد هو والآن نريد أن نعلم هل للوطن علاوة على بعده الاجتماعى وقضاياه الموجودة بعد آخر؛ وبعبارة أخرى هل للوطن فى التجارب الشعرية ولو واقعية بعد آخر غير البعد



الاجتماعى والواقعى؟ الجواب إيجابى؛ بل ولنقل أنّ أية تجربة تسمى شعرية لما احتوت على البعد الفنى إلى جانب الأبعاد الأخرى.

المصادر والمراجع

- حداد، قاسم. ١٩٧٠م. ديوان البشارة. الطبعة الأولى. البحرين: الشركة العربية للوكالات والتوزيع.
- حداد، قاسم. ١٩٧٦م. الدم الثانى. الطبعة الأولى. البحرين: دار الغد للنشر والتوزيع.
- حداد، قاسم. ٢٠٠٩م. إيقاظ الفراشة التى هناك. دمشق: دار نينوى.
- الخاطر، مبارك. ١٩٨٨م. نابغة البحرين. الطبعة الثانية. البحرين: الشركة العربية للوكالات والتوزيع.
- خليفة، أحمد محمد. ١٩٦٢م. ديوان هجير وسراب. البحرين: لانا.
- خليفة، على عبدالله. ١٩٧٣م. إضاءة لذاكرة الوطن. الطبعة الأولى. بيروت: دار الآداب.
- خليفة، على عبدالله. ١٩٩٤م. أنين الصواري. الطبعة الثالثة. البحرين: دار الغد.
- الرفيع، عبدالرحمن. ١٩٧٠م. أغانى البحار الأربعة. الطبعة الأولى. بيروت: دار العودة.
- الشفراوى، على. ١٩٧٥م. الرعد فى مواسم القحط. الطبعة الأولى. البحرين: دار الغد.
- العويناتى، سعيد. ٢٠٠٢م. إليك أيها الوطن إليك أيتها الحبيبة. البحرين: فراديس للنشر والتوزيع.
- القائد، عبدالحميد. ١٩٧٥م. عاشق فى زمن العطش. الطبعة الأولى. البحرين: دار الغد.
- القصيبي، عبدالرحمن. ٢٠٠١م. الأشج. بيروت: المؤسسة العربية للنشر والتوزيع.
- القصيبي، غازى عبدالرحمن. ١٩٧١م. معركة بلا راية. الطبعة الأولى. البحرين: دار الكتاب.
- القصيبي، غازى عبدالرحمن. ٢٠٠٢م. للشهداء. الطبعة الأولى. عمان: مطبعة الجامعة الأردنية.
- المعاودة، عبدالرحمن. ١٩٦٠م. لسان الحال. الطبعة الأولى. بيروت: دار الثقافة.
- ممتحن، مهدي. «الأدب النسائى مصطلح يتأرجح بين مؤيد ومعارض». فصلية دراسات الأدب المعاصر. صيف ١٣٨٩ش. العدد ٧. صص ١٣٥-١٥٢.

